الجماعة الوطنية : وسحابة الحادث الأخير ! (*)

أستطيع بكل التعاطف والعقل معا ، أن أتفهم رد فعل الغضب الغضوب للإخوة الأقباط على اعتداء غاشم من منفلت عقلا أو سلوكا على المصلين بثلاث كنائس بالإسكندرية ! رد الفعل الغاضب الغضوب شعور إنسانى طبيعى اجتاحنا جميعا من هول أن يتعرض مصلٌّ أيا كانت ديانته لطعنةٍ غادرة أو مجنونة بينما هو منصرف عن الدنيا وشواغلها ، مستغرق بكل حواسه ومشاعره فى عبادة ربه ، لا يدور ولا يمكن أن يدور بخلده ، ولا بخلد أحد ، أن تمتد إليه أو إلى سواه من المصطفين إلى جواره للصلاة أيادى العدوان والغدر والتهجم والعصف بالأرواح وسلامة الأبدان .. لن نفهم ونتفهم ردة فعل الغضب الغضوب ، ويتسع تسامحنا وفهمنا ، إذا لم ندرك الظروف المحيطة ، وما تتعرض له الجماعة الوطنية من سهام تلعب على أوتار مفتعلة لإشعال حريق بين أبناء الوطن يأتى على الأخضر واليابس !.. من حق القبطى على كل مسلم فى مصر أن يكون له درعًا من أى جموح أو انفلات مريض أو مجنون ، ومن حقنا جميعا أقباطا ومسلمين أن نتوقع من الأمن المصرى رعاية أوفر وأكثر حداثة وفاعلية من الأداء التقليدى الذى يكاد ينحصر فى «أساليب عتيقة» تغلق الشوارع وتلغى طرقات وتضع متاريس

(*) الأهرام ٢٠/ ٤/ ٢٠٠٦.

تضيق على البسطاء فى حركتهم وشئون حياتهم ، بينما يستطيع «واحد» أجل واحد مدرب تدريبًا جيدًا مزودًا بالإمكانيات الحديثة أن يقى رواد دور العبادة من مثل هذا الهجوم الأحمق الغادر المجنون .. من واجبنا أن نفهم أنه إذا كان الحادث المروع قد أصابنا نحن المسلمين بألم غائر ، وحرك لدينا استنكارًا عريضًا ، فإن التأمل يوجب أن نعطى لغضب الإخوة الأقباط هامشًا أكبر من الفهم والتسامح ، فمن حقهم فى هذه اللحظة المروعة أن يحسوا أن المصاب مصابهم ، وأن الكارثة لحقت بهم وبأمانهم ، وتثير مخاوف لا تنتهى من الحاضر والمستقبل فى الوطن الذى ضمهم وضمنا جميعا فى الماضى والحاضر ، وهو هو موئلنا الذى لا موئل لنا سواه أقباطًا ومسلمين فى آتى أيامنا !!

أكتب هذا أخاطب به المسلمين الذين أنتمى إليهم ، ولست أخفى أننى أكتب بقلب واجف قلق من بوادر مؤسفة أخذت تشرئب تورى باحتمالات تصعيد يخفق لها قلب مصر .. أكاد أرى بإشفاق هائل ما يمكن أن ينتظرنا من أزمات إذا استسلمنا لردود الفعل التلقائية المنفعلة !.. إذا لم نفسح مساحة واسعة عميقة للفهم ، ومساحة أعرض من الإسماح وسعة الصدر حتى ينقشع غضب من واجبنا أن نكفكفه وأن ندرك ونتفهم أسبابه ودواعيه ، وأن ما يزيح غمته هو هذا الفهم المشترك ودفء التعاطف الإنساني والإسماح الذى يتسع لغضبة الغاضب ، ويتسع لطمأنة الروع والقلق والانزعاج !! .. يفرض هذا ، فوق ما تقدم ، أن هناك تيارات وقوى متعددة تستهدف وحدة وأمان هذا الوطن ، وتريد أن تشعل نارًا لا تنطفئ ، وأن تبلقنه كما بلقنت وتسعى لبلقنة سواه !!

هذا الحادث المؤسف ، يستدعى أن نأخذ بجدية أكثر ما قلناه ونقوله فى كل مـرة يداهمنا فيها واقعة مفاجئة ، من وجوب أن نخرج من حالة «اللا توقع» ،وأن تمتد رؤيتنا ومعالجتنا ومصارحاتنا إلى أبعد من مجرد تجاوز القارعة التى جدت ! هام جدا أن ننمى ملكة الالتفات والتفطن ، وأن نغوص إلى الجذور فى صدق وصراحة بلا أى حساسيات ، وأن نتحاشى ما نقع فيه دوما ، من رد فعل ساخن ، حقيقى وصادق ، نسارع إليه حين تدهمنا كارثة ، ندبج المقالات والخطب ، ونكثف بيان ما بين المسلمين والأقباط من أخوة عريقة ومن محبات ، ونتبادل الرأى والرؤية ، ونتنادى بسبل العلاج .. ثم لا نلبث حين تهدأ القارعة أو ينسحب لهيبها أن نسرع إلى ما درجنا عليه من نسيان وإخلاد إلى حالة «اللاتوقع «حتى تدهمنا قارعة جديدة تعيد استنفار الأفكار والمشاعر التى سكنت أو توارت فى زوايا النسيان المريح !

أحسب أن «الاحتقان» الذى لم يعد أمام أحد سبيلا إلى إنكاره أو المماراة فى وجوده ، يحتاج إلى بحث عريض يشارك فيه مفكرو وعقلاء الأمة ، وإلى صدق وصراحة وصبر وأناة ، وإلى تفتيش أعمق فى الجذور والأعماق وفى حياتنا وعاداتنا وسلوكياتنا ، وفيما درجنا عليه بحكم العادة أو الاعتياد المريح .. لا يكفى الارتياح إلى أن الإسلام والمسيحية بريئان من أى أسباب للاحتقان ، فهناك ملصقـات تتراكـم بفعل الناس لا بفعل الأديان ، وهذه الملصقات هى التى يرجع إليها ما يسود حياة الناس من التباس يستدعى أن نعمق النظر فيه لنفرز الأصيل من المصطنع ، والحقيقى من الوهمى ، والدائم من العرضى ، وأن نعطى مزيدا من الاهتمام بالعقل والعلم والثقافة ، فهى جميعا تصب فى صالح الاعتدال

واتساع الأفق ، وكلاهما يغلق منابع التعصب .. سعة الأفق سجية مانحة للقدرة على رؤية وتقبل كل الألوان والأطياف والتضاعيف ، وباب رحيب لعمق وسعة النظر ، ووقاية من الانغلاق والتعصب والشرود .. وأحسب أيضا أن مصير الوطن يستوجب بلا تحفظات مناقشة النظرية الأمنية التى ثبت احتياجها إلى مزيد من التحديث فى الرؤية العامة وفى الأدوات والوسائل .. وفى اعتقادى أن الرؤية الأمنية قضية مجتمعية يجب أن يهتم بها المجتمع بأسره لا رجال الشرطة وحدهم ، فجوانبها فى عصرنا باتت عديدة تدخل فيها السياسة والاقتصاد ، وتدخل فيها التكنولوجيا وتقنيات العلوم الحديثة ، ويدخل فيها الإلمام العريض العميق بحركات التدين وتياراته ، وبعلم النفس وتحليلاته ، فضلا عن معطيات النظريات والوسائل الأمنية الحديثة .. ليس من الإنصاف أن نرمى بكل أحمالنا على جهاز الأمن ، ففى حالة ومستوى الأمن ، تصب روافد عديدة من خارج الأمن بالمعنى الضيق .. كثير من القوانين والقرارات السياسية والاقتصادية لها مردودات أمنية ، وأزمات البطالة والأسعار ، والمساكن والعشوائيات لها مردودات أمنية ، وأزمة تراجع العقل وتخييم الجهل والإظلام لها مردودات أمنية ، ونضوب الملاعب والساحات الرياضية بعامة له مردودات أمنية .. كثيرٌ من أزماتنا يصب فى الأمن وينعكس عليه .. ومن القصور الضرير أن نحصر رؤيتنا فى المعالجة الأمنية بالمعنى الضيق ، مصير الوطن قضية بالغة الخطر والتركيب ، تحتاج إلى رؤية شاملة تفتح صدرها وبصيرتها لكافة المعطيات السياسية والاقتصادية والثقافية والتعليمية والاجتماعية ، الرسمية وغير الرسمية ، وتنشد الحكمة بلا أى حساسيات لدى رصيدنا الهائل من المفكرين والعقلاء ، لنحسن التشخيص، ونحسن المسير بسفينة الوطن إلى شاطئ الأمان !